تفسير سورة الطور

هى مكية

آياتها ٤٩ — نزلت بعد السجدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۞ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۞ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ۞ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۞ يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۞ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۞ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۞ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞
أَفَسِحْرٌ هٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا
تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۞ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ مُتَّكِئِينَ
عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞
وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۞
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۞ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا
مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۞ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ
لَا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحَانَ اللّٰهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتّٰى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا ذلك كله بالقسم بما فى العلويات والسفليات من أوّل السورة إلى قوله : « انه هوالبرّ الرحيم » .

القسم الثالث فى إلزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن فى صدق النبوّة ، واثبات الألوهية من قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

تنوّعت الرحمات فى هذه العوالم التى أبدعها الله عزّوجل ، وهذا التنوّع يدعو الى استيقاظ الأرواح ، ونشاط النفوس التى خلقت فى هذه العوالم ، موت وحياة ، وذلّ وعزّ ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار وجنة ، وهذان هما المذكوران فى هذه السورة ، كل مخلوق فى هذه العوالم الأرضية يبدو فى أوّل أمره ناقصا ثم يأخذ فى الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والانسان ، فالنقص قبل الكمال ، والنار قبل الجنة « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » .

الانسان يخرج من بطن أمه لايعلم شيئا والعلم يبدو له قليلا قليلا ، وأكبر مدلة فى هذه الحياة للأفراد والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأوّلهما مقدّم على ثانيهما ، وفى هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت فى أوّل السورة ، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يبدو العلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجل الرحمات وأبهج السعادات أن تصل النفوس إلى مستقرها بعد حرمانها ، والى سعادتها بعد شقاوتها ، وتتذكر ما كانت تعانيه وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة ، و نشير لذلك اقبال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون و يتذكرون

أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء المنقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متكئين على سرر مصفوفة وهم متزوجون بالحورالعين .

ومن أبدع مايسرّ النفوس و يشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهذا العالم خلق نفسه ؟ أم وجد بلاخالق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهوالله تعالى ، وهذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعزّ بعد الذل ، فكأن الرحمة فى هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد [بتشديد الباء] وذلك على سبيل النشوء والارتقاء ، فالانسان قبل تمام الحجة جاهل بالنتيجة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بتمام الحجة نعيم كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء فى [اخوان الصفاء] أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقال قبل ذلك سقراط فانه أبان أن الانسان لايفعل المعصية إلاالظنه أنها نافعة له من وجه ، ولوأيقن أنها ضارّة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الامام الغزالى رحمه الله تعالى فقال : لوأن طبيبا قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذى يملؤه وهو واثق طبعا بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفرّ منه فراره من الأسد ، فلوأن الناس أيقنوا بمضرّة الذنوب وثوقا حقيقيا لم يذنبوا ولكن العلم الناقص لايفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التامّ باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالا فى هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وعلى البلاء ، وفى الأعمال حتى تكمل ، ومن أجلّ الأعمال فى هذه الحياة الدنيا الوقوف على سرّ هذا النظام ، وسرّه أن كل شرّ فى هذا العالم لم يقصد به إلاأنه مقدمة لخير ، فالخير والشرّ يتجهان معا لنظام العالم نظاما تامّا يستوجب الحمد ، ولذلك ختم السورة بهذه الآيات : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبارالنجوم » .

فى أوّل السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفى آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الانسانية فى هذا الوجود ، التسبيح والتحميد معا سرّ هذه الحياة ، فالتسبيح كما شرحناه مرارا ملازم للتحميد ، إذ نرى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فتنزيه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمى ملازم لحصول الخيرات لنا ، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سرّ هذا الوجود واطمأنوا بنورعقولهم إلى أن كل شرّ لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لاخير بلاشرّ ، ولايمكن حصوله بدونه ، فالشرّ لابدّ منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الانسان فى الدنيا والآخرة ، فاذا لاحظ النجوم وسيرها وجمالها فرح بجمالها وجمال مبدعها ، وكان فى هذه الحياة الدنيا فى سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م

القسم الثانى : فى ذكر العذاب والنعيم

ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطور) طورسينين ، وهو جبل بمدين كلم الله موسى عليه السلام فيه . والطور بالسريانية الجبل

(وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أوالتوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وماسطر فى القلوب الانسانية من المعارف ، ومافى نفوس الملائكة من الحكمة ، ومافى اللوح المحفوظ ، بل كل مادلّ على حكمة يرمز له بالكتاب المسطور (فى رقّ منشور) الرق هوالصحيفة ، أوالجلد الذى يكتب فيه ، وأريد به هنا مجازا ماهوأعمّ ، والمنشور المفتوح لاختم عليه (والبيت المعمور) أى الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن الممتلئ بالمعارف والحكمة والاخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذى ورد فى الحديث الآتى ، وهو بيت فى السموات العلى قدّام العرش (والسقف المرفوع) أى السماء (والبحر المسجور) أى الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هوالذى كشف فى العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأمم قديما لم تعرفه ، فعن عبد الله بن عمر : لايركبنّ رجل البحر إلا غازيا أومعتمرا أوحاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا ، ولاجرم أن هذا البحرهو باطن الأرض الذى اتضح اليوم ، وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أى ان نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى البراكين أو بالزلازل كالزلزلة اليابانية التى حدثت فى سنة ١٩٢٥ وكبركان ايزدن بايطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فانه لم يعلم به أحد من الأمم الاسلامية ، ولا غير الاسلامية بعد النبوّة ، ومن عجب أن يذكر فى الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجيب ! وأما كون النار تحتها ماء فمعناه أن البحر فوق الأرض والنار فى باطنها ، وفى الجهة المقابلة يكون البحر ، فالبحر فى الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وجواب القسم (إن عذاب ربك لواقع) لنازل (ماله من دافع) يدفعه (يوم تمور السماء مورا) تضطرب ، والمور تردّد فى المجيء والذهاب (وتسير الجبال سيرا) أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للمكذبين) يقول : اذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم فى خوض يلعبون) أى يندفعون فى الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا فى سورة أخرى : « وكنا نخوض مع الخائضين » (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) يدفعون إليها بعنف بحيث تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) ولقد كنتم تنسبون لمحمد أنه يسحر العقول ويغطى على الأبصار ، فهل هذا الذى هو مصداقه سحر أيضا ، وهذا قوله (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) هذا أيضا كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا مايدل عليه ، وهذا تقريع وتهكم (اصلوها فاصبروا أولا تصبروا) أى ادخلوها على أىّ وجه شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه ، ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لابدّ منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع فى الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين) معجبين بذلك ناعمين (بما آتاهم ربهم) من الخير والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئا) مأمون العاقبة من التخمة والسقم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من ايمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (وزوّجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذرّيتهم بايمان) هذا مبتدأ خبره (ألحقنا بهم) أى نلحق بهم (ذرّيتهم) فى إيمانهم ولوكان أولئك الأبناء مقلدين لآبائهم ، فالآباء إيمانهم نظرىّ والأبناء إيمانهم تقليدىّ لاتباعهم لآبائهم ، فنحن نلحق الأبناء بالآباء فى الايمان ، ونجعل غير الناظرين كالناظرين المفكرين ، ويسرهم من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وما ألتناهم) ومانقصناهم (من عملهم من

obeikandl.com

شيء) بهذا الالحاق (كل امرئ بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه والا هلك (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم وقتا بعد وقت مايشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يتنازعون فيها كأسا) يتعاطون فى الجنة هم وجلساؤهم ويتجاذبون خمرا فى كأس (لالغو فيها ولاتأثيم) لايتكلمون بلغو الحديث فى أثناء شربها ، ولايفعلون مايؤثم به فاعله ، بخلاف خمر الدنيا ، فالشارب لها كثير اللغو فعال للآثام (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) مماليك مخصوصون بهم (كأنهم) فى الحسن والبياض والصفاء (لؤلؤ مكنون) مخزون مصون لم تمسسه الأيدى ، وقد سئل ﷺ فقيل له هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ قال فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا فى الجنة أى يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب فى الدنيا (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا) فى الدنيا (مشفقين) خائفين من العذاب (فمنّ الله علينا) بالمغفرة (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم (إنا كنا من قبل ندعوه) أى كنا من قبل ذلك فى الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول « وقنا عذاب النار » ثم ان فى تجاذب الكأس بينهم واقبالهم بعضهم على بعض ، وعدم اللغو فى مجالسهم اشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن الفارض :

صفاء ولاماء ولطف ولاهوا ☆ ونور ولانار وسكر ولاخمر

وقوله (إنه هو البرّ) أى المحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

القسم الثالث فى الزام الكافرين بالحجة

ومجادلتهم بالتى هي أحسن فى صدق النبوّة واثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) فعظ يامحمد بالقرآن كفار قريش ومن معهم (فما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وانعامه عليك بالنبوّة ، أو بحمده وانعامه (بكاهن ولامجنون) الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم الغيب ويخبر به (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل أيقولون هو شاعر ، وريب المنون مايقلق النفوس من حوادث الدهر ، أونفس الموت ، يقال منه اذا قطعه (قل تربصوا فانى معكم من المتربصين) أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم عقولهم بهذا التناقض فى القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، وفرق عظيم بين مجنون العقل ومن يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحدّ فى العناد (أم يقولون تقوّله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لايؤمنون) فيرمونه بهذه المطاعن كفرا وعنادا ، وفى قوله « بل » ردّ لما زعموا أى ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أى بحديث مختلق مثل القرآن (ان كانوا صادقين) فى زعمهم ، وفيهم الفصحاء ، ثم شرع يبين فساد نظرياتهم فى الالهيات بعد النبوّات فقال (أم خلقوا من غير شيء) أى بل أخلقوا من غير خالق ، ومعلوم أن الحادث لابدّ له من محدث . أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم فى الوجود ، وباعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أى بل أهم (أم خلقوا السموات والأرض) أى واذا فرض أنهم خلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السموات والأرض المتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فان من يخلق شيئا يخلق أسبابه ، واذن لابدّ أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذبه قطعا (بل لايوقنون) اذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا الله ، ولوأنهم أيقنوا لما أعرضوا عن العبادة (أم عندهم خزائن ربك) خزائن

رزقه حتى يعطوا النبوّة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهم سلم) مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) كلام الملائكة ومايوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ماهو كائن من تقدّم هلاكه على هلاكهم وظفرهم فى العاقبة دونه (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدّق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين ومن كان هذا رأيهم لايعتدّ بهم (أم تسألهم أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم) من التزام الغرم (مثقلون) محاولون الثقل فلذلك زهدوا فى اتباعك (أم عندهم الغيب) اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لانبعث ، واذا بعثنا لم نعذب (أم يريدون كيدا) وهوكيدهم فى دارالندوة برسول الله ﷺ (فالذين كفروا) أظهر فى موضع الاضمار لتسجيل الكفرعليهم (هم المكيدون) هم الذين يحيق بهم الكيد ويعود عليهم وبال كيدهم وقد تمّ يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعينهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن اشراكهم (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم هذا (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لوعذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أوّل ظهورها ليس بعذاب مكابرة كماهى عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) عند النفخة الأولى (يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء فى ردّ العذاب (ولاهم ينصرون) يمنعون من عذاب الله (وان للذين ظلموا) من كل أمة وجيل (عذابا دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة فى الحياة الدنيا كقحط قريش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا المصائب التى تحيط بالمسلمين اليوم باغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك ، وكعذاب القبر (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهلهم وأوقعك فى نصب معهم فذلك لأجل معلوم (فانك بأعيننا) فى حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكلؤك ، وجمع العين للمبالغة فى الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أىّ مكان قمت ، ومن منامك ، والى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فان العبادة فيه أشقّ على النفس وأبعد من الرياء (وادبار النجوم) وادا أدبرت النجوم من آخرالليل : أى فى أعقابها اذا غربت أوخفيت ، والمرادأن يقول « سبحان الله وبحمده » فى هذه الأوقات ، وقيل التسبيح الصلاة اذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وادبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة

***

ويمنى للانسان أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك اذا قام من المجلس ، وزاد الترمذى : أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فانها تكفر ماينهما . وغيره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم اذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستغفار عشرا ويقول اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى ، وكان يتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة ، وأيضا كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، وجلّ ثناؤك ، ولا إله غيرك .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « والطور » الخ .

٢١ وفى قوله : « والبيت المعمور » والسقف المرفوع ، والبحر المسجور » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : والطور

أقسم الله فى هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رحمة وهو السماء ، و بأدنى مكان قد ملئ جحيما وعذابا وهو البحر المسجور فى باطن الأرض ، و بما بين ذلك من الكتب المسطورة ، والعلوم المنشورة ، والحكم المشورة ، والآراء المبثوثة ، المقروءة فى كتب الديانات ، و بدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس واشراق القلوب ، و بأماكن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن فى عوالم لا يعلمها أحد إلا الله .

أقسم الله بالسموات العلى ، و بما تحت الثرى ، و بيوت العبادات فى الأرض والسموات ، و بالعلوم المعقولات فى الأرض وفى السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات ذروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، و بالسماء وحسنها وجمالها وهنا أوسع القسم ايساعا فلم يذر عالما سماويا ولا أرضيا ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله فى القسم أو أشار إليه . انتهت اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : والبيت المعمور الخ

وأعجب ما أقسم به البحر المسجور الذى فى باطن الأرض على ما يظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المنشور ، وقد روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها فى نار جهنم ، فاذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو أن تحت البحر نارا يكون البحر الذى هو باطن الأرض منضما إليه لبحر الملح فيتسع نطاق النار ، فاذن باطن الأرض نار الآن ، والبحار يوم القيامة تصير نارا ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذى هو عبارة عن باطن الأرض اذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر فى باطن الأرض لم تكن البحار التى على وجه الأرض شيئا مذكورا بالنسبة للنار فتتحوّل نارا فى لمح البصر ، فانا نشاهد أننا اذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحوّل الماء الى نار ، وزاد فى اشتعالها ، لأن الاكسوجين الذى فى الماء نار فينقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات فى القرآن .

وأما البيت المعمور الذى يقال له [الضراح] فيقال ان حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض . وقد جاء فى حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى البيت المعمور فى السماء السابعة قال فاذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفى رواية أخرى : فانتهيت إلى بناء فقلت للملك ماهذا ؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدسونه ، ولعل ذلك البيت فى عوالم مما لا يخطر بالبال ذكرها غابت عنا لبعدها ، ومن تأمّل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيما مارونه روح الفيلسوف غاليلى لما أحضرت وطلب منها التكلم على العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسا بالنسبة لها كنسبة الشمس لحمل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لا يخطر بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع المعيشة ، وهناك الشموس التوائم جمع توأم فان نظام أهلها لا يخطر بالبال ، ولم تسمعه أذن ، ولم تره عين . بل هو فوق متناول الخواطر من البهجة والجمال ، ويقول : ان تلك العوالم كلها مسكونة وهى تعدّ بمئات الملايين ، فما جاء فى هذا الحديث وهذه الآية أصح مما يقرأ فى العلم الفلكى والعلم الروحى بأوروبا

وأما الرق المنشور الذى ذكر بعد الطور المنزول كتاب التوراة وكل كتاب سماوى وحكمى الخ فانه قد ظهر أتمّ ظهور فى هذا الزمان ، إذ لم يكن النوع الانسانى ليعرف رقا منشورا كما نعرف نحن الآن . فقد أظهر الله فى سائر الأرض الجرائد والمجلات منشورة يقف بها [illegible] فى [illegible] و[illegible] بالشوارع ، وقد نشروها

فى أيديهم وقرأها الناس فى كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولا أن هناك عوالم فى الكواكب لاتتناهى ، ولاأن هنا فى الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولا أن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامّة من كل الأمم إلا فى هذا الزمان .

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والتربية وهو التعليم العام الذى أخذ ينتشر انتشارا سريعا فى الوقت الحاضر . وثانيهما ظهور الجرائد والمجلات منشورة فى كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التلفون والتلغراف (البرق) الذى له سلك والذى لاسلك له ، وهكذا المسرّه (التلفون) . كل هذه فى معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .

لم يكن فى الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوّة ، لم يكن فى دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : فمنهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الاسلام وعمم العلم وقال : « فى رقّ منشور » ولا نشر على الوجه الأكمل إلا فى هذا الزمان ، فهو يرمى لغرضين : الأوّل تعميم التعليم ، والثانى الاخبار عما حصل فى هذا الزمان من قولهم : [انتشار التعليم] وقولهم [تعميم التعليم] وقولهم [نشر الصحف] وقولهم [نشر المدنية والحضارة] وقولهم [نشر الكتب] وما أشبه ذلك .

نتائج هذه المعجزة القرآنية فى النفوس

إن نتائج هذا المقال فى العقول قسمان : القسم الأوّل ما يحصل فى عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن نبينا حقّ والاسلام حقّ ويفرحون ، وهؤلاء هم الكسالى العاقلون الذين يقتصرون على الايمان وهم نائمون [القسم الثانى] هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقرءون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الاسلام فيقولون : لم يذكر الله ذلك ليريد مجرّد الايمان كلا . وإنما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا فى الأمم ومركزنا فى الحياة ، وهذا الفريق يقول : ان هذه الآيات حجة علينا ، فاذا كان الله نشر العلم فى العالم الانسانى ، وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت المعمور ، واذا كان جلّ جلاله يقسم بما هو فوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنشور ، وقد أقسم قبل ذلك بعجائب الرياح والسحاب والمطر التى بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض فى [سوره ق] . اذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين اذا قصروا فى معرفة علوم العالم العلوى والسفلى لاسيما بعد ظهور الصحف المنشورة فى عصر العلم والعرفان فهم لايستحقون الوجود ، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوما خيرا منهم لأنهم لايصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يحدّون فى ارتقاء أمتهم خائفين من ربهم اذا قصروا فى العناية بما أقسم به .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولوالدىّ والمسلمين والمسلمات . وأسأل الله أن يفتح بهذا الكتاب بابا يلجه المسلمون للعلوم والعرفان . وأن يكثر فى هذه الأمة من رجال العلم العاملين ، والى هنا تمّ الكلام على سورة الطور ، والحمد لله رب العالمين . كتب فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٥ هجرية .